مجلة اللغة العربية وآدابها
السنة ١٥، العدد ٣، خريف ١٤٤٠هـ
صفحة ٤٠٣-٤٢٤ (مقالة محكمة)

Print ISSN: 1735-9767
Online ISSN: 2423-6187
https://jal-lq.ut.ac.ir/

دلالة الألوان في شعر فوزي سعد عيسى

رمضان رضائي[١*]، علي قهرماني[٢]

١. أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها باكادمية العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية، طهران، إيران
٢. أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الشهيد مدني بأذربيجان، تبريز، إيران

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٨/٦/٢؛ تاريخ القبول: ٢٠١٨/١١/٦)

الملخّص

يمثل اللون ملمحا جماليا في الشعر ويُعدُّ عنصراً مهماً من عناصر البناء الفني، بما يحمل من دلالات ذات علاقة مباشرة بالرؤية الفنية، ففي معظم الأحيان لايرد اللون فيما وصف له، بل يكشف عن إحساس الشاعر؛ فهو مبعث للحيوية والنشاط والراحة والاطمئنان، ورمز للمشاعر المختلفة من حزن وسرور. اللون من أهم ظواهر الطبيعة وأجملها، ومن أهم العناصر التي تشكّل الصورة الفنية، لما يشتمل عليه من الدلالات الفنية والنفسية والاجتماعية والرمزية. لذلك ينبغي دراسة اللون في الشعر من خلال ربطه بسياق النص الشعري، فالسياق الشعري هو الذي يحدد وظيفته وفاعليته. يتناول هذا البحث دراسة الألوان ودلالاتها في شعر فوزي سعد عيسى، ويهدف إلى تبيين ظاهرة اللون في شعره وإبرازها؛ وقد اعتمد البحث منهج الوصفي- التحليلي وتبيين الألفاظ اللونية. ففوزي سعد عيسى من الشعراء المعاصرين الذين قاموا بتوظيف الألوان الرمزية علي مستوي وسيع. وتشير نتائج هذا البحث إلى أنّ الشاعر قد يجعل للألوان دلالات رمزية وأحياناً تصريحية، وقد يستخدم هذين النوعين في بيت واحد وأنّ الشاعر اعتمد في استخدامه للون علي ألوان بعينها، وهي: الأبيض والأسود والأحمر والأخضر والأصفر و... .

الكلمات الرئيسة

الشعر العربي المعاصر، فوزي عيسى، الدلالة، الألوان.

---

* الكاتب المسؤول
Email: drr_rezaei@yahoo.com

مقدمة

إن القيمة اللونية بوصفها نسقاً تعبيراً تشكل مهيمنة أسلوبية واسعة المدى، بالغة التأثير في المتلقي كونها ذات امتداد بصري ينهض على استدعاء البور التصويرية القابعة في حواشي المتن الشعري وتفعّل بها البنى الصورية التي تزداد إيحاء وجهراً بمكنونات النص التي قصد الشاعر البوح بها على نحو، إذ للون تأثير في النفس والجسم والمزاج ولكل لون معنى نفسي نابع من قدرته على إحداث جملة من الانفعالات والتأثيرات النفسية المتكونة أصلا من التأثيرات والمستويات الحضارية والثقافية والبيئية في تشكيل المعنى.

إن اللون موضوع معقد، وهو جزء من خبرات الإنسان الإدراكية والطبيعية للعالم المرئي، واللون لايؤثر في قدرة الإنسان على التمييز فقط، بل إنه يغير المزاج والأحاسيس، وإن الألوان من أكثر الأشياء جمالاً وخصوبة في حياة البشر؛ ومن خلالها يحاول الإنسان أن يثري حياته، ويضفي عليها من بديع الجمال وبهائه ما لايحدّه واصف أو يحيط به خيال. فالألوان ليست خطوطاً أو مسحات شكلية خالية من دلالات جمالية، وتعبيرية، ورمزية، وفي بعض الأحيان تز ئينية؛ بل هي صور تعبر عن موضوعات الحياة، وانفعالات الفنان بها، والتدقيق في الآثار الأدبية التي ترشدنا إلى أن استخدام اللون في هذه الآثار ليس صدفة، ولم يأت لتنميق الكلام فحسب بل له ارتباط وثيق بجميع المستويات البنيوية، والبلاغية، والتعبيرية للنص الأدبي.

ولا بد لنا من الإشارة إلى أنّ النظر إلى دلالة الألوان بكونها متغيرة بتغير المؤثرات النفسية والمقاييس الذوقية يدلّنا علي عدم ثبات كثير من الأحكام الصادرة عن دلالتها لأن بعض الدلالات تتغير بتغير الظروف، والأزمان، وتأثير اللون قد يتغير بتغير الحالة النفسية للشخص الواحد.

إنّ ولوج اللون في الشعر الحديث كان ولوجا معقدا، حيث ابتعد اللون عن محوره البصري ليلامس المنظومة الصوتية التي تحكم الشعر ومختلف اتجاهات الأدب الأخرى، الأمر الذي جعل من هذا التعقيد مسوغا للبحث في عالم اللون المنطوي تحت عالم الشعر، وذلك التعقيد يتخذ مستويات متفاوتة في النص الشعري الحديث، إذ يبدو اللون الواحد عند شاعرما مختلف الدلالات من قصيدة إلى أخرى، ومن مرحلة تاريخية إلى أخرى، ويعود الأمر إلى تحوّل في الموقف الفكري الذي أنجزته الظروف المحيطة، كما أن بعض الألوان تكتسب خصوصية اجتماعية دينية في مرحلة زمنية معينة، أضف إلى ذلك أن بعض الألوان تتخذ طابعا إشاريا في مرحلةما، وتتخذ طابعا رمزيا في مرحلة أخرى، وربما تتخذ منحى العلامة،

والخ، كل ذلك يستدعي من المرء الوقوف على دقائق الأمور التي تحيط باللون في سياق معين، وفي مرحلة زمنية معينة. وفوزي عيسى بما امتلك من خيال وشاعرية أدرك ما للألوان والخطوط الحركية من قيمة إيحائية وتأصيلية في بناء الصورة الشعرية، وقد اعتمد في استخدامه للون علي ألوان بعينها، وهي علي الترتيب حسب قوة ظهورها لديه: الأخضر والأبيض والأسود والأحمر والأصفر و... فنظراً إلى مكانة شعره في الأدب العربي المعاصر واحتواءه على الفنون المتعدّدة، بدأنا بتصفح ديوان هذا الشاعر فمن هذا المنطلق حاولنا في إطار المنهج الوصفي- التحليلي، الإجابة عن الأسئلة التالية:

ما هي أبعاد دلالة اللون عند فوزي عيسى؟

أي من الألوان أكثر حضوراً في شعر فوزي عيسى؟

فللإجابة عن هذه الأسئلة، استخرجنا الأبيات التي تحمل الصبغة اللونية وأحياناً تحمل معنى اللون وقسّمناها على قسمين: قسم استخدم الشاعر فيها الألوان الرئيسة وأحياناً الألوان الفرعية وقسم آخر استخدم الدلالات الرمزية والتصريحية فيها.

خلفية البحث:

الدراسات التي تناولت تجربة الشاعر فوزي سعد عيسى نخصّ منها بالذكر كتاب عبد الجواد شعبان الفحام الموسوم بـ"تجليات الحداثة في شعر الدكتور فوزي عيسى" (٢٠٠٦) درس فيه الكاتب عن مفهوم الحداثة وجذورها ثم عن كسر عمود القصيدة والرمز والأسطورة والتناص وغير ذلك في شعر فوزي عيسى. ومقالة رزق عمري بركات تحت عنوان "شعر فوزي عيسى الرؤية والابداع" ومقالة عبدالرحيم حمدان حمدان تحت عنوان "توظيف موروث الأدبي في شعر فوزي عيسى" (٢٠١٥)، العدد الثاني لمجلة كلية فلسطين التقنية، عالج فيها الباحث، التضمين وتوظيف النص القرآني وتضمين أقوال ومأثورات نثرية وتوظيف الشخصيات الأدبية في شعر فوزي عيسى.

ومن الدراسات التي تناولت الألوان في الشعر منها كتاب ماجد فارس قاروط الموسوم بـ: "تجليات اللون في الشعر العربي الحديث"؛ وكتاب يوسف حسن نوفل الموسوم بـ"الصورة الشعرية والرمز اللوني" ورسالة أحمد عبدالله محمد حمدان الموسومة بـ"دلالات الألوان في شعر نزار قباني" في جامعة النجاح الوطنية، ودراسة حيدر محمد جمال سيد أحمد تحت عنوان "إيقاع الألوان في شعر عزالدين المناصرة" المنشورة في مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، ومقال مشترك لمحمد مهدي سمتي ونرجس طهماسبي نجهداري الموسوم

بـ"الألوان الرمزية في أشعار صلاح عبدالصبور" المنشور في مجلة الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها. ومقال آخر مشترك لمرضية آباد ورسول بلاوي تحت عنوان "دلالات الألوان في شعر يحيي السماوي" المنشور في مجلة إضاءات النقدية.

نبذة عن حياة الشاعر

ولد فوزي سعد محمد عيسى سنة ١٩٤٩م في مصر وقد نشأ في أسرة مهتمة بالأدب، فكان عمه الأديب "حمدي عيسى" من أكبر شعراء وزجالي محافظة البحيرة، وكان يمتلك مكتبة أدبية ضخمة، كما كان يقيم منتدى أدبياً يؤمه الشعراء والأدباء. وفي هذا الجو الأدبي المفعم بالألفة العائلية نشأ الشاعر متأثراً بشخصية عمه الأديب تأثراً كبيراً، فكان يلازمه معظم الوقت ويتلقف عنه أخبار الشعراء والأدباء التي كان يحفظها ويرويها، فكان لهذا الجو الأدبي أثره الكبير في تفتح موهبة الشاعر في وقت مبكر. وقد عرف بتفوقه ونبوغه، وكان من أوائل الثانوية العامة في محافظته، كما كان أول دفعته بقسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة الإسكندرية. عين فوزي عيسى معيداً بقسم اللغة العربية سنة ألف وتسعمائة واثنتين وسبعين، ثم أتم رسالة الماجستير سنة ألف وتسعمائة وخمس وسبعين التي تحمل عنوان "الشعر العربي في صقلية" بتقدير ممتاز. (http://www.almoajam.org) وبعد تسجيله لدرجة الدكتوراه في موضوع " الشعر الأندلسي في عصر الموحدين " سافر في بعثة علمية إلى أسبانيا لجمع المادة العلمية، وتعرف هناك على معالم الحضارة الأندلسية في قرطبة وغرناطة، ثم عاد ليحصل على درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى. ثم عين مدرسًا للأدب العربي بالكلية وتدرج الشاعر في الوظائف التدريسية بالجامعة حتى رقي إلى درجة أستاذ سنة ألف وتسعمائة وتسع وثمانين، ثم عُين رئيساً لقسم اللغة العربية واختير عضواً بالجمعية الأيبيرية للدراسات الأندلسية بالبرتغال، كما اختير عضواً للدراسات الأدبية بالمجلس الأعلى للثقافة، وعضوًا باتحاد كُتاب مصر. (الجبوري، ٢٠٠٣: ج١٧٩/٤) نشر العديد من مقالاته ودراساته النقدية في الصحف والمجلات المصرية والعربية، كما أن له نشاطاً بارزاً في قصور الثقافة والمهرجانات والموتمرات الأدبية. «من دواوينه الشعرية "أحبك رغم أحزاني" ١٩٨٦ و"لديّ أقوال أخرى" ١٩٩٠. له العديد من المؤلفات والتحقيقات منها: "في الشعر السعودي المعاصر" و"التجديد في شعر العقاد" و"شعراء معاصرون" و"العروض العربي ومحاولات التجديد" و"ابن زهر الحفيد" و"الهجاء في الأدب الأندلسي" و"الشعر الأندلسي في عصر الموحدين" و"الشعر العربي في صقلية" و"الزرزوريات في النثر الأندلسي"» (الجبوري، ٢٠٠٣: ج١٧٩/٤).

الشاعر، فوزي سعد عيسى، كغيره من الشعراء الذين عاشوا حياتهم في ظلال البيئة والثقافة؛ كان لها أثرها في تشكيلاته الشعرية. البيئة الريفية هي البيئة الأولى التي تفتح فيها الشاعر، حيث نشأ في مدينة هي أقرب للريف منها إلى المدينة حيث الحقول والأنهار وأشجار الفاكهة وغيرها، وتكثر الصور الريفية في شعر فوزي عيسى بألوانها المختلفة. وهو يتفاعل مع صور الطبيعة تفاعلًا صادقًا، يستمد منها أجمل الصور، وأروع الألوان الموحية.

كما أثرت البيئة الريفية في شعر فوزي عيسى كان للبيئة الحضرية أثرها البارز؛ حيث أكسبته الحياة في مدينة الإسكندرية كثيراً من رقة المشاعر، بالإضافة إلى الإعجاب بالمدينة التي تغني بجمالها، وأفرد لها قصيدة بعنوان " الإسكندرية دائماً " ذكر فيه عشق البحر لها، ومدى حبه لتلك المدينة الجميلة التي تحولت إلى معشوقة تذهب عنه الملل وتبدد ليل الأسى والحزن.

هناك ممارسات ومكتسبات ثقافية وشعورية شكلت وجدان الشاعر الفكري، وأسهمت في الإيحاء برؤاه، وهذا المؤثر من أهم العناصر، لأن مدلوله يمتد ليشمل العناصر أو المؤثرات الأخرى مثل الوعي الاجتماعي أو السياسي أو الديني. (سلامة، ٢٠٠٢: ٢٩) وقد تحدث الشاعر في بعض الحوارات الصحفية عن المحاور البارزة في شخصيته الأدبية، وعن أفكاره العلمية وأساليبه في تناول الإبداع الشعري والنقدي، وأثر الصحافة في حياته الأدبية، (هالوص، ٢٠٠٠ أ: ١٠) كما كان لأسفار الشاعر ورحلاته العديدة إلى البلاد العربية أثر كبير في تكوينه الأدبي، حيث ألف أثناء إعارته للمملكة العربية السعودية كتاباً بعنوان: "الشعر السعودي المعاصر" المذكور آنفاً. كما سافر للمشاركة في مؤتمرات أدبية إلى لبنان وسوريا والإمارات والجزائر والمغرب العربي.

دلالات الألوان

أ) اللون الأبيض:

ثمة استقصاء لورودات اللون الأبيض والبياض في مكنوز التراث الثقافي العربي الذي تتكشف لدينا دلالات متعددة، لكنها تشترك بمفاهيم متقاربة وقيم إنسانية، صاغتها التجربة، فترسّخت في الثقافة الجمعية ومن ثم الوجدان، فأضحت بداهات نادراً ما تلفت الانتباه لكونها معاشة بالواقع ومتماهية في الحراك اليومي والآني والمستهلك، لكن الدلالة باتساع تفرعاتها وتأويلاتها وإحالاتها تفتح آفاقاً رحبة لصوغ مادة مفهومية قد تجد لها تجسيراً ثقافياً يحتوي تفرقاتها في بنية معرفية هيكلية تنطلق برؤيتها من جديد اعتماداً على تحليل الفينومينولوجيا للفعل الرمزي التمثيلي.

اللون الأبيض: «هو أول الألوان البسيطة، ويمثل الضوء الذي بدونه ما كان يمكن رؤية لون كما يقول ليوناردو دافنشي» (عمر، ١٩٩٧: ١١١)، فهو رمز للطهارة والنقاء والصدق، وهو يمثل "نعم" في مقابل "لا" التي يمثلها الأسود، الصفحة البيضاء التي ستكتب عليها القصة.. إنه يمثل البداية في مقابل النهاية. (عمر، ١٩٩٧: ١٨٥-١٨٦) كما يرمز الأبيض إلى الصفاء والغبطة والنقاء والطهر والعفاف والسلم. (نوفل، لاتا: ٣٣)

قد وضعت العربية لهذا اللون عشرات الألفاظ التي تحدد صفاته ودرجاته فقال العرب لون أبيض، وأكدوه بقولهم: «وأبيض يَقَقٌ، ولَهَقٌ، وصَرَحٌ، ولِياحٌ، ولَياحٌ ووابصٌ وحضُيّ وقضهّبٌ... وقَهْدٌ» (إبراهيم، ١٩٨٩: ٢٤).

ويمثل اللون الأبيض في شعر فوزي عيسى طرف المعادلة الثاني (الخير/الشر) أو (الضياء/الظلام) أو (نعم/لا)، ويأتي اللون الأبيض مناقضاً للأسود بدلالاته المحزنة الكئيبة، حيث تدور معظم الدلالات المرتبطة بهذا اللون في شعره حول التفاؤل، النقاء، الجمال، الصفاء.

يلاحظ أن فوزي عيسى لا يستعمل الأبيض بلفظه المباشر، وإنما يفتح بظلال اللون وسائل تعبيرية من شأنها إيجاد إطارات جديدة تختلف عن المعهود في شعره، وربما هذا أيضًا يعكس إحساساً آخر بعدم التفاؤل أو لنقل خشية التفاؤل؛ فهو لا يلجأ إلى اللون الصريح الذي يوحي مباشرة بالمعاني السابقة للون، وهكذا فإن ظلال اللون الأبيض ترمز في مجملها إلى الصفاء والنقاء، وهي تدبيج فريد يضيف إلى التزيين باللون أو ظلاله لوناً من التشخيص والحركات التي تجعل الصورة حية ناطقة، ونقرأ قوله:

> نحن الصعاليك، ننظم للعشق ملحمة/ نتعلق دومًا بخاصرة الشمس/ نشرع بواباتنا للهواءِ/ ونبقر بطن الخرافةِ/ ليولد فجر جديد.../ وننعم بالصبح والمطر المتساقط عبر الحقول (سعد عيسى، ٢٠٠٩: ١٥١-١٥٢)

حين يجسد الشمس فاتنة يتعلق بخصرها، فهو يستخدم ظلال اللون الأبيض، وحين يكنى عن الحرية والانطلاق (نشرع بواباتنا للهواء/ ونبقر بطن الخرافة/ ليولد فجر جديد/ وننعم بالصبح و...) لا يجد إلا الهواء النقي الصافي، والخلاص من السواد ليحل مكانه الفجر والضياء وكل هذا من تداعيات الأبيض. ويلاحظ أن المطر حين صوَّره الشاعر أسود كان كناية عن جحافل الاستعمار والفساد والشر، أما حينما يتساقط نقيًا عبر الحقول فهو كناية عن النماء والسعادة...

ومن ظلال الأبيض التي تحمل دلالات تشبيهية تنم عن الترف قوله:

وقينة تشنف الآذان/ بصوتها الجميل.../ يضحكن عن جمان/ يسفرن عن بدور (سعد عيسى، ٢٠٠١: ٧٤)

بالرغم من أن الجمال له معان متعددة، تختلف من إنسان إلى لآخر إلّا أن هنالك بعض السمات المشتركة بين هذا وذاك. وقد خاطب الشعراء الصفات الجمالية في الإنسان وفي المرأة على وجه الخصوص. فقد تغزل الشعراء في سواد الشعر وطوله وفي العيون السوداء الواسعة وفي العنق الطويل إلى آخره من مقاييس الجمال. وقد نالت الأسنان حظها من الوصف والتغزل. فللأسنان جمال ثابت منذ القدم راسخ لايتغير فقد تغيرت مقاييس الجمال الأخرى وتطورت. وجمال الأسنان في بياضها الذي تكشفه الابتسامة، وفي هذه الحالة شبه الشعراء الابتسامه التي تكشف عن بياض الأسنان بالبروق التي تضوي عتمة الليل وكذلك جمال الأسنان في تناسقها وانتظامها الذي شبهه الشعراء بعقد الدرّ. وقد شبه الشعراء الأسنان بالنوار والزهور البيضاء وبالفضة وهناك أيضاً قيمة جمالية مرتبطة بالأسنان حيث يشبه الشاعر الأسنان في بياضها باللؤلؤ، ويشبه الوجه في ضيائه وبياضه بالبدر. هذا ونرى تداعيات اللون الأبيض في مقابل تداعيات اللون الأسود من ظلمة، وضياع وقهر وظلم ويأس، وعجز فالبياض يرمز للنور والتحرر والحلل في قوله:

يا وطنًا تحكمه الدهماء!/ إن طال الليل فلا تحزن/ سأعود إليك وفي قلبي/ شلال ضياء (سعد عيسى، ٢٠٠١: ٢٧)

فعودة الشاعر تؤذن بانقضاء الظلم والظلام والعجز، ليحل الضياء والأمل والحرية. وقد رسم الشاعر تدبيجاً فريداً أيضاً من خلال الطباق بين ظلال الأبيض الذي يرمز إلى النصر والحرية، ونقيضه الأسود الذي يرمز به إلى الاستعمار وطول مكثه جاثماً على صدر الأمة.

ب) اللون الأسود:

الألوان لها تأثير سحري على المناظر وقد تضفي عليها المزيد من الروعة والجمال، فاللون الأسود مثلاً هو كالأبيض تماماً لا يصنف بين سلسلة الألوان، فهو لون حيادي، إلا أنه يتميز بتأثيراته على الأجواء المحيطة به، وبمدلولاته المتعددة. فإذا كان اللون الأسود له تعبيرات ومعان سلبية في الحياة الاجتماعية كالحزن والتعاسة والألم والموت فإنه يعبر عن النبل والرقي والتميز في عالم الديكور وله درجات عديدة وإيقاعات متنوعة. وأضيف على ذلك أن اللون الأسود في اللباس له اعتبار في المحافل الاجتماعية والرسمية، كما تدل ربطة العنق السوداء على الحزن، كما يدل على ذلك اللون الأسود الكامل لدى النساء. وغلبة اللون الأسود تعطي مؤشراً أولياً على طبيعة إدراك الشاعر لعالمه، وأن جانباً من اختياراته

التعبيرية قد وقعت تحت طائلة هذا اللون وظلاله وتداعياته، حتى لتكاد تغطي هذه الاختيارات السوداوية جانباً كبيراً من الواقع الذي يعيشه الشاعر سواء في ذلك الواقع المادي، أو المعنوي. واللون الأسود "أعمق الألوان" وهو في الحقيقة سلب اللون نفسه.

وفي اللغة العربية عشرات الألفاظ التي تصف هذا اللون ودرجاته ؛ فالأعراب يقولون: هذا أسود وللمبالغة في السواد يقولون « أسود حالك، وفاحم وقاتم وغريب ومصلخم وغرابي وأدجن وأدخن وأدعج وأدلم وأدغم وأسحم وأبخس وبهيم وأسحمان وحانك» (إبراهيم، ١٩٨٩: ٧٧ و٨٥ و٩٤).

يقول محمد عبد المطلب إن اللون الأسود هو «نقطة البدء لانكشاف بقية الألوان» (عبد المطلب، ١٩٩٦: ٢٥) ويتردد استخدام اللون الأسود بظلاله وتداعياته وبدلالاته المباشرة وغير المباشرة في شعر فوزي سعد عيسى مما يعكس نظرته المأساوية للواقع الذي يعيشه هو وغيره ممن يشاركونه في الإحساس بأوجاع الوطن، وهموم الأمة، مما يبرزه في صورة اشتباك دائم مع اللون وما ينسحب عليه؛ فالواقع عنده محاصر بضباب كثيف، وكل مفرداته تندر بالقتام والسواد. حيث يقول:

فيشتعل الثلجُ/ ينهمر المطر الأسود/ يرتعد اللون الأخضر/ وتتفتح الأقبية الموصدة/ تَطل جحافل من بوم، وخفافيش/ وأسراب جرادٍ/ تسمل عين الشمسِ/ فيحتشد اللون الأسودَ، يعلن بدء مواكبهِ/ يتقوقع في هيكله.../ يشرب ماء الملح/ ويفرز لؤلؤة الظامئَ، للأنهار (سعد عيسى، ١٩٩٧: ٩٣-٩٤)

فقد لعب اللون بالخيال ولعب الخيال باللون؛ فمن خلال استعارة مكنية دقيقة (الثلج يشتعل) موحيًا بانتشار البرودة في أوصال الأمة، واحتراق الطهر والنقاء الذي غلفها قروناً، (وتظهر جحافل البوم والخفافيش، وأسراب الجراد) مؤذنة بانتشار الفساد، وتغلغله بقوة.

يستخدم الشاعر اللفظة ذاتها (الثلج) على سبيل التورية فالمعنى القريب هو المعروف، والبعيد يرمز إلى صفاء الأمة وطهرها ونقائها، وتعبر الكناية في (المطر الأسود ينهمر)، (يرتعد اللون الأخضر)، (تتفتح الأقبية الموصدة) عن انتشار الفساد، وخوف الصغار، وكثرة القتلى. كل هذه الصور العبثية تجعل عين الشمس تسمل، وحينئذ يحتشد اللون الأسود ـ الذي يجسد الحالة النفسية لمن يعيش في هذا الواقع المرير ـ وينتصر ويعلن بدء مواكبه، ويتقوقع في هيكله... وتلك صورة عجيبة، وغريبة تشير إلى الواقع الوطني والقومي من خلال الكناية إما عن اللون، أو عن انتشار الفساد، والشر، وتغول العدو الغاصب، والبرودة في عروق الأمة، وعن انتشار الخوف والرعب في القلوب الصغيرة، وعن انتشار حالة الخمود والظلامة التي سادت فكر المجتمع وقد صاغها الشاعر عبر المقدرة اللغوية.

ونجده في قصيدة أخرى يرسم صورة الحصار اليهودي للأرض المحتلة في فلسطين ؛ ليعبر عن مساوئ الاستعمار، وهي صورة قاتمة يصبح فيها اللون الأسود قريناً لهذا الواقع الذي طال فيه الليل، وعربد القرصان، وروع سرب الطيور الآمنة وسود وجه الصباح، وزرع الرعب بجوف الأرض، ووضع الألغام في وجه النهار، وفجَّر الغل عيوناً حيث يقول في قصيدة " الحصار":

حاصروهمُ عزل بلا أيّ سلاحْ/ روعوا سرب الطيور الآمنة/ سوَّدوا وجه الصباح/ زرعوا الرعب... بجوف الأرض تنينًا كبيرًا/ كحَّلوا عين الصبايا... بالنواح/ أطلقوا النار على الشمس صباحًا/ حين كانت تمنح الدفء لأيتامٍ صغار/ وضعوا الألغام في وجه النهار/ فجَّروا الغل عيوناً/ ثمَّ لجوا في الحصارْ (سعد عيسى، ١٩٨٩: ٦٧)

فترويع سرب الطيور الآمنة كناية عن إثارة الرعب والفزع بين الآمنين العزل من الشعب الفلسطيني. وفي صورة استعارية رائعة لون الشاعر (المعنى) فجعل فعلهم في الشعب لونًا أسود طغى على الوجوه البريئة والنفوس المضيئة المسالمة. وفي لمسة ساخرة تنطق بالمرارة، وتصور القبح جمالاً، جعل الرعب نباتًا يُزرع، والنواح كحلاً لعيون الصبايا. ثم أطلقوا النار على الشمس لتحرق الوجوه البريئة المسالمة، ووضعوا الألغام في وجه النهار كناية عن تحول الفرح إلى حزن وكآبة، بل إلى عجز، وتدمير للطموح والآمال. وصور الشاعر (الغل) مجرى مائيًا يفجره بقوة، لتسقي البشر غلا وحقدًا وتعاسة أبدية. وكما صور الشاعر واقع الوطن والأمة باللون الأسود موحيًا بالظلم والاستبداد والشر والفساد والقهر والطغيان، إنَّ هذا الإحساس بالخطر جعل الشاعر كغيره من الشعراء العرب والمسلمين، يُحِسُّ بِهذا الإحساس العارم بالقدس وفلسطين وأرضها ونضالها، وبخاصة بعدَ أنْ بدأت خيوط المؤامرة تتضح والأطماع الصهيونية تكشر عن أنيابِها. نجده في مواطن أخرى من قصائده يرسم باللون الأسود صور معاناته الذاتية، وإحساسه بالفقد والغياب، فالشاعر يبحث عن حبيبته التي تضيء له الحياة، فهي النور الذي يغمر حياته فيبدد الظلام، وهي الدفء الذي يبدد صقيع قلبه، وهي الربيع الذي يهز خريف حياته وهي " شذا الروح " كما يصفها في قصيدة بهذا العنوان حيث يقول مستدعيا ظلال اللون الأسود:

وكنت كروضة جرداء/ لا ماء ولا شجر/ وحين تعانق القلبان/ داعب عوده الوتر/ وطاب العشق والسهر (سعد عيسى، ١٩٨٩: ٦٨)

استخدم الشاعر ظلال اللون من خلال التشبيه فصور حياته روضة جرداء بلا ماء ولا شجر، والجملة في ذات الوقت كناية عن الإحساس بالفقد والوحدة والغربة. ثم في تخييل

بديع يجسد القلبين اللذين يتعانقان، لإضفاء نوع من دفء المشاعر التي فقدت، ثم هاهي السعادة تعود لترفرف من جديد كما يعبر عنها من خلال الكناية في قوله:

داعـــــــب عـــــــودة الـــــــوتر وطـــــــاب العشـــــــق والســـــــهر

(سعد عيسى، ١٩٨٩: ١٢)

ويسترفد الشاعر عناصر الطبيعة والكون راسماً فيها صوراً حزينة تعبر عن ذاته الوحيدة حين تلفه الوحدة والصمت بهواجس الموت والخوف مما يحرك الحزن الدفين في قلبه فلا يجد سوى اللون الأسود معبرًا عن إحساسه بالكآبة من هموم ذاته، وآلام الثكلى، والمكلومين حيث يقول مستخدماً تداعيات اللون الأسود:

حين يجن الليل وترخى كل الستائر/ أقبع وحدي.../ حيث الصمتُ... الموتُ... الخوفُ سحابات الأفكارُ/ ينبعث الحزن الأبدي النائم في قلبي... قبري/ أسمع أنات الثكلى وعذابات المكلومين (سعد عيسى، ١٩٨٦: ٢٥)

فهاهو الحزن ينتفض بعد النوم في القلب الذي أصبح قبرًا لا قلبًا. وهي صورة رمزية تعكس من خلال ظلال اللون الأسود في (الصمت.. الموت.. الخوف.. الحزن.. القبر.. العذاب....) سلسلة من الآلام المتلاحقة، والمعاناة.

وفي قصيدته "التتار يجتاحون بغداد" يرسم شاعرنا صورًا عديدة لما ارتكبه التتار ببغداد من جرائم وانتهاكات، يتخيل فيها المتنبي يلملم أوراقه بعد أن عاين أنقاض المدينة العريقة، فلم يعد يسكنها سوى الغرابيب بدلالاتها التشاؤمية، ولونها الأسود حيث يقول:

وبغداد قد أحرقتها الصواريخ/ والمتنبي يعاين أنقاضها/ ويلملم أوراقهُ/ والنواسي يبكي/ وتبكي القوافي/ ولا شيء غير الغرابيبِ/ فوق الخرائبِ، لا شيء غير الدمار (سعد عيسى، ٢٠٠٩: ٢٤٧)

وواضح أن الغراب يتمتع بصفات أثارت الغرابة لدى البشر مما أدى إلى استنكاره واعتباره رمزًا للتشاؤم والنحس عند بعض الشعوب، والعرب هم الذين يتشاءمون بهذا الطائر ويكرهونه كرهًا شديدًا. يتثمل ذلك الاستنكار والكره الشديدين للغربان، عند غالبية العرب، في التشاؤم بتواجده قرب البيوت والمزارع وجميع الأماكن التي يتواجدون فيها، حتى الصحراء، وقد نتج عن ذلك ـ الكره التاريخي لهذا الطائر ـ الكثير من الألفاظ والتصرفات التي تنم عن الكره والاستحقار، ففي اللغة العربية، الكثير من الأمثلة والألفاظ التي تبين كره العرب للغراب.

فالغرابيب هنا إما كناية عن الخراب الذي عمَّ البلاد، أو كناية عن هؤلاء المستعمرين المهلِكين، أو هو من قبيل التورية، حيث يدل اللفظ على معنيين القريب المعروف، والبعيد المراد وهم التتار.

هكذا يشكل الشاعر بلونه الأسود وتداعياته دلالات مختلفة تكشف عن إحساس عميق بما يحاك للأمة، وما تعيش فيه.. وما أصابها على امتداد عصورها.

ج) اللون الأحمر

نجد اللون الأحمر هو اللون الأشد تأثيراً وهيجاناً وقوةً وأن لهذا اللون خاصية عجيبة تتعلق بالحياة والسرور من طرف وبالموت والحرب والخطر من طرف آخر، وهو لون الدم على الإطلاق. وقد أطلقه العرب وصفاً للماء، وورد في الحديث الشريف: «بعثت إلى الأحمر والأسود» (الدارمي، ٢٠١٣: ٥٩١). والعرب تقول: امرأة حمراء، ويريدون: بيضاء، والعرب تطلق على الأبيض: أحمر إذا أرادت لوناً أبيض، وأطلقه العرب على الذهب والزعفران فسموها الأحمران. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «أهلك الرجال الأحمران وأهلك النساء الأحامرة» (الدارمي، ٢٠١٣: ٤٧٢) والأحمران الخمر واللحم، والأحامرة الذهب والزعفران، فـ«اللون الأحمر لون يرتبط في اللغة العربية بالمشقة والشدة من ناحية أخذًا من لون الدم» (عمر، ١٩٩٧: ٧٥)؛ كما يشير إلى النشوة والتمرد والحركة والحياة الصاخبة والغضب والانتقام والقسوة. (يوسف همام، ١٩٣٠: ٩) ويرى بعض علماء النفس ـ بعد تجاربهم في الألوان ـ أن الأحمر يثير روح الهجوم والغزو والافتتان والشجاعة والثأر ويخلق في الإنسان نوعًا من التوتر العضلي. (عمر، ١٩٩٧: ١٥٤)

وقد وضعت العرب عشرات الألفاظ التي تعبر عن ماهيته وقيمته ومدى نقائه ودرجة تشبعه فقالوا: أحمر، وأكدوه بقولهم: أحمر قان، ذريحي، وأحمر باحريٌّ وبحراني، وناصع، وناكع، وأحمر نكِع، وأحمر عاتك، وأحمر أكلف وأحمر فقَّاعيٌّ وأحمر قَرِفٌ. (إبراهيم، ١٩٨٩: ٥٠-٥٢)

ويأتي اللون الأحمر ثالث الألوان استعمالاً عند الشاعر فوزي عيسى، وفيه تتباين الدلالات التي يدور حولها تبايناً لا يخالف ما عليه هذا اللون في الواقع، تستدعي أكثر السياقات الحزينة التي يرد فيها اللون الأحمر أو تداعياته التي ترتبط بالدم والجراح والمعاناة والحزن والأسى والقتل والاغتصاب، وتتناثر مفردات اللون الأحمر وظلاله في شعر فوزي عيسى فتراه يقول:

دائرة حمراء/ مدنًا حمراء/ دم من مداد/ المروج الحمر/ رمان/ ياقوتة ظما/
كهان يريقون الدماء/ يسبح في دمهم/ يستحل الفرات دما/ هذه الأرض خضبتها
الدماء/ بحر الدم/ هل تنكرين دماه في شفتيك/ أرى تحت الرماد وميض نار

وتشير الشواهد السابقة إلى تنوع دلالات اللون الأحمر فهو يرمز إلى الدماء أو الشفاة أو الياقوت أو الرمان... (سعد عيسى، ٢٠٠٩: ٨٤) ويستخدم بدلالته الأولى "الدماء" إلى تصوير نكبة بغداد واجتياح التتار لتلك المدينة العريقة.. حيث يقول:

> وحده، لص بغداد / يمرح في طرقات المدينةِ، في حلل الموت / يصعد فرق تلال الجماجم / يشرب من ثقب جمجمةٍ لوثتها يداه / خمور انتصاراتهِ ن ويزين شاراتهِ / بجماجم أطفال بغداد يسبح في دمهم (يستحل الفرات دما) (سعد عيسى، ٢٠٠٩: ٢٤٤-٢٤٥)

في الأسطر السابقة نلاحظ تعانق الأسود والأحمر فاللص يتشح بالسواد، والموت أسود، وتلال الجماجم سوداء، والدم أحمر، ليس دماً بل بحر من الدماء يسبح فيه. وجميعها كنايات عن القتل واغتصاب المدن قبل الأعراض، وفرح زائف بانتصار مشين. فماذا تراه يقول لو أعاد الوصف مرة أخرى على بغداد العريقة نفسها، وعلى أهلها وأطفالها، ونسائها، وشيوخها... ولكن ليس من التتار هذه المرة، بل من قادة الديمقراطية ونصرة حقوق الإنسان... من الأمريكا، فيا لسخرية الأقدار. وكأن التاريخ يعيد نفسه... ولا يريد للعروبة قومة.

وفي إدانته للواقع السياسي والعربي إزاء ما يحدث من اليهود من تدنيس أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، يصور هذه الأرض وما أصابها حيث صُبغت باللون الأحمر، لون دم الشهداء من أطفال ونساء وشباب وشيوخ، حيث يقول:

هـــذه الأرض خضـــبتها الـــدماءُ ... فاحرثوهـــا ينبـــت بهـــا شـــهداءُ
واسمعوهـــا تُرَجِـــع اليـــوم لحنًـــا ... يعربيـــا تزهـــو بـــه الأرجـــاءُ

(سعد عيسى، ٢٠٠٩: ٢٥٩)

وإذا لاحظنا الكناية عن الاستشهاد في (هذه الأرض خضبتها الدماء) حيث يختلط لون الطين بلون الدم، فإننا لا نغفل تلك الصورة البديعة التي صور فيها امتلاء الأرض بدماء الشهداء بالخضاب الذي يزين صاحبته، فالاستشهاد فخر يتمناه كل إنسان... ثم يعود ليصور كثرة القتلى على الأرض الطاهرة بالزرع الذي يطلب الحرث ليترعرع وينمو فتياً قوياً يواجه الأعداء.. فهي صرخة قوية في أذن هؤلاء المشاهدين الذين جُعل الوقر في آذانهم، وباتوا يستسيغون لون الدم، وصوت الرصاص... ثم هذا اليأس الذي يطل من الكلمات، والحزن والألم على ما يصيب هذا البلد الطيب وأهله.

وفي إشارة إلى الواقع البغيض الذي يمقته الشاعر، وينعكس على أغلب شعره، نجده يسجل مشاعره إزاء هذا الواقع في قصيدة ألوان حيث تتداخل فيه الأمور، وتتشابك فيه خيوط الأحداث من حقائق وأكاذيب، ويتلون فيه التاريخ حسب مقتضى الحال فيقول:

يخرج من هيكله الليليّ/ ليرسم دائرة حمراء/ بلون العشب/ وشقراء بلون الزنج/ يرى مدنًا حمراء (سعد عيسى، ١٩٩٧: ٩٠)

فنلاحظ تعانق الألوان في قصيدة تحمل اسمها (ألوان) حيث الليل بسواده المعهود الذي يوحي بما يحمله هذا الخروج من الخوف والرعب. إنه خرج ليسجل تاريخاً جديداً يحوي الموت بشتى صوره، فهذه الدائرة توحي بانغلاق على غاية واحدة وهي القتل.. وتتعدد صور التاريخ في كل مكان والغاية واحدة فلن يترك أخضر ولا يابساً يمر بكل البلدان، يبث ألاعيبه وأكاذيبه، يتلون بكل الألوان، ينشر سمه في كل مكان، تتحول كل بقعة يمر بها إلى دماء.. إن تنوع الألوان في القصيدة يعكس دلالات نفسية، وقومية لدى الشاعر المهموم بقضايا أمته، وواقع وطنه.

تتنوع دلالات اللون الأحمر في قصيدة "ظمأ" حيث تتجاوز الياقوتة معناها الحسي المباشر لترمز إلى الحرية التي يجتهد الشاعر للبحث عنها فلا يجدها إلا في صوب المروج الحمر والتي سوف تمنحه ما بخلت به من قبل، فتأمل قوله:

ياقوتة ظمأى... ورمان.../ يناجز في معاقله الرماح/ فيستبقْ هذا أوان إغارة الخيل../ النصال توهجت/ والغيث معقود بساحتها/ فبادر... وانطلق صوب المروج الحُمُر/ تمنحك الذي بخلت به من قبلُ/ تشهر كأسها فأرق دماءَكَ واعتبِقْ (سعد عيسى، ٢٠٠١: ١١- ١٢)

ففي استعارة دقيقة يرمز إلى قيمة الحرية، فيصفها بالياقوتة النادرة التي يسعى إليها الجميع، ولا يحظى بها إلا القليل منهم.. أما الرمان الأحمر فيشير إلى صعوبة الوصول إلى الياقوتة وسط هذا الكم الهائل من المتشابهات والمتناقضات، فليس كل أحمر ياقوتاً، ومع ذلك فالكل يحارب لعله يفوز، وبين هذا وذاك يدعو إلى الانطلاق صوب الحرية (المروج) بإراقة الدماء الحمراء (الاستشهاد)، وحينئذ تبرز الياقوتة نقية لتنعم بها بعد طول انتظار. وهكذا تؤدي الألوان في القصيدة دلالات متنوعة تجمع بين التضحية والفداء وبين النصر والحرية، وقد عبر الشاعر عنها تعبيراً يمس الوجدان ويصل إلى المعنى المراد بصدق الإحساس، والتجربة.

د) اللون الأخضر

صنف هذا اللون في المرتبة الأخيرة مع اللون الأزرق، لأن الزرقة درجة من درجات الخضرة، وخصصت له العربية عدداً من الألفاظ لتحديد نقائه أو اختلاطه بالألوان الأخرى، وارتبط هذا اللون بعدد من الأساطير لارتباطه بلون الشجر والنبات، كما أنّ بعض الأساطير قد وحدت بين المرأة والشجرة. كانت البقعة الخضراء أجمل ما تقع عليه عين العربي، وارتبط هذا اللون في الصور الشعرية بالنعمة المرتبطة بالشدة والقوة. فالأخضر هو لون الخصب والرزق في اللغة العربية، كما أنه «لون الغضاضة وعدم النضج» (عمر، ١٩٩٧: ٧٩)، والأخضر «عنوان الحياة والصحة ويرمز إلى الكون والطبيعة والربيع والمرح والسرور والشباب» (نوفل، لاتا: ٣٣).

قد وضعت العربية لهذا اللون ألفاظاً أساسية، فقالوا: يكون ذلك في الحيوان والنبات مما يقبله. وهو أخضر وخضور وخضِر وخَضير ويَخْضيرٌ ويخضور.. ومن الخضرة في ألوان الخيل أخضر أحم، أخضر أدعم. وأخضر أطحل، وأخضر أورق. (إبراهيم، ١٩٨٩: ٦٦-٦٧)

اللون الأخضر في شعر فوزي عيسى يدور حول دلالات الخصب والنماء والبهجة والخير والتفاؤل، ويستعمله بدلالاته المباشرة وغير المباشرة. ونرى الشاعر يرسم أحياناً صورة متفائلة لوطنه الذي أحبه، واهتم بواقعه المرير وحلم بمستقبله الحر وهوائه العليل، ففي قصيدة "اشتهاء" يرسم الشاعر صورة زاهية للنهر الذي يرمز عنده للوطن النبيل الأخضر الذي عاش فوق أرضه وتنفس هواءه، وأعجب بحضارته فتراه يقول:

تبرجت حقول الشمس، وأورق الجماد/ واخضوضرت في راحتي المروج/
وأشرعت نهودها الرياح/ والرماح أنبتت سنابلا (سعد عيسى، ١٩٩٧: ٧٩)

وتلاحظ أن التشخيص والحركة التي في الألوان البيضاء والخضراء، تعطي إيحاءات كنائية وتخييلية، تعمق إحساس التفاؤل الحذر بين جنبات الجمل التعبيرية.

على الرغم من الآهات والأحزان التي تملأ صدر الشاعر، إلا أنه لم يتخل عن ذلك المعنى الذي يعطي للحياة ألواناً مختلفة، فحب الشاعر للمرأة يعني الحياة، والمرأة عنده هي الحياة بكل مقوماتها، فهي واحته الخضراء التي تعيد الحياة لتلك النفس المعذبة، فهي الأمل، والرجاء والخلاص والملجأ من ذلك الواقع المؤلم، فيقول:

فأنت الواحةُ الخضراءِ بعدَ مشقةِ السفرِ وأنت الروضةُ الغنّاءِ تؤتي أطيبَ الثمرِ

(سعد عيسى، ١٩٨٦: ٩٦)

فتشبيه المرأة بالواحة الخضراء يدل على استحسانه للنظر إليها، وميل نفسه وراحته فيها؛ فاللون الأخضر يوحي بالراحة والهدوء والسكينة.. وحين يصفها بالروضة الغناء فهو يشير إلى عطائها الحسن الوفير.

وفي قصيدة "شذا الروح" تشكل المرأة لدى الشاعر صورًا كثيرة، فهي الوطن الذي يفر إليه ليلتمس فيه الأمن، وهي الرياض المزهرة والواحة الخضراء، وهي عطر النفس وشذاها، وهي رمز الطهر والنقاء حيث يقول:

أنت لي موطن أفر إليهِ / ورياض وواحة خضراءُ/ أنت للنفس عطرها وشذاها/ أنتِ للروح طهرها والنقاء (سعد عيسى، ٢٠٠١: ٥٩)

وأكاد أستشعر أن رؤية الشاعر للمرأة على هذا النحو تعكس نقاء وصفاء من نوع مختلف، وهو الطهر والنقاء الأسري، والبيئي، الذي وعى من خلاله قيمة المرأة ودورها العظيم في الحياة أمًا كانت أو أختًا أو زوجة...

هـ) اللون الأصفر

وهو أول الألوان ذكراً في القرآن الكريم وقد ذكر خمس مرّات في خمس آيات (البقرة/٦٩، الروم/٥١، الزمر/٢١، الحديد/٢٠، المرسلات/٣٣) اللون الأصفر ـ كاللون الأحمر ـ من عائلة الألوان الساخنة، وهو يمثل قمة التوهج، والإشراق، ويعد أكثر الألوان إضاءة ونورانية، فهو لون الشمس واهبة الحرارة والحياة والتفاؤل والضياء، وهو لون ـ وخاصة الفاقع منه ـ ينشط الذهن ويسر الناظرين. (محمد علي، ٢٠٠١: ٩٥) واستخدمه المصريون القدماء رمزاً لآلهة الشمس وللوقاية من المرض. للون الأصفر دلالة أخرى تناقض الأولى وهي دلالته على الحزن والهم والذبول والكسل والموت والفناء وربما الدلالة هذه ترتبط بالخريف وموت الطبيعة والصحارى الجافة وصفرة وجوه المرضى. من المعروف أنّ اللون الأصفر ظلّ يحمل الدلالة السلبيّة فهو «لون المرض والانقباض. ولقد يرتبط اللون الأصفر بِشِعرِ الحزن والتبرُّم من الحياة والتحفُّز نحو عالمٍ أطهر» (كرم، ١٩٤٩: ٩٤) ، فحينما نأتي لعالم النبات يكون اللون الأصفر هو المعاكس للون الأخضر؛ وبالتالي فإنّه يتحمّل الدلالة العكسيّة له من جدب ومحولٍ وشحوب، حتى أنّ الفلّاح يتشاءم منه تماماً مثلما يتفاءل باللون الأخضر. فهذا اللون مختلف في دلالته بحسب السياق فمنه ما يعني الذبول والجفاف والمرض، ومنه القاتم ما دل على الماء الآسن.

الصفر كغيره من الألوان لا يحمل الوجه الواحد، فدلالاته متعددة، وكما يحمل دلالة الدفء والنشاط والحيوية والسطوع والنورانية، يحمل أيضاً دلالات مغايرة لذلك تماماً،

فيعبر به أحياناً عن الحقد والحسد والضغينة، والخيانة، والغيرة. ويستخدم في مواضع أخرى دالاً على الخريف والبؤس والقحط والحزن والذبول والموت والألم والشحوب والانقباض. (نوفل، لاتا: ٣٢)

ويأتي اللون الأصفر خامس الألوان استخداماً عند الشاعر، وتظهر الصفرة وصفاً لأشياء مادية وأخرى معنوية، وفي الحالين لا تخرج عن إثارة دلالات محزنة، كما هي السمة المميزة لاستخدامات الألوان عند فوزي سعد عيسى. ومن مفردات اللون الأصفر وظلاله في شعره: اللغات الصفر/ صفراء تذهب عن لياليك الحزن/ يورق في أزمنة الجدب الصفراء/ حقل القمح/ يحمل حنطته. ففي مفتتح ديوانه "لغة بلون الماء" يقول الشاعر:

لغة بلون الماء.../ ترضع من غمامات الرياح/ ومن بحار الشمس.../ تسكنني، وتدفع زورقي.../ لتواجه الجرذانَ، والكهَّان/ والعسس المدجج باللغات الصُّفرِ../تحفر خلف سد الليل... مجرى.../ يطفئ النارَ التي اشتعلت/ بحقل القمح... (سعد عيسى، ٢٠٠١: ٥- ٦)

بحكم دراسته الأدبية كان لا بد للشاعر من موقف، ووقفة تجاه لغته التي تزحف وتعلو عليها كل اللغات محاولة استئصالها كما يزحفون بجنودهم وأسلحتهم وعاداتهم. يفخر الشاعر بلغته الصافية النقية التي ترضع من غمامات الرياح وبحار الشمس تماماً كالماء الذي لا لون له، ويتلبس الشاعر بهذه اللغة ثم يجعلها تسكنه، ويصبح هو وهي شيئاً واحداً استعداداً لرحلة المواجهة والكشف بين الجرذان والكهان والعسس باللغات الصفر؛ فهي لغة ـ كما يقول ـ تبتعد عن الظلام والغموض والشك وتتصادم مع كل غامض حتى لو كان نسقًا موروثًا.. وقد لعبت ظلال الألوان الأبيض، والأسود والأحمر مع الأصفر بظلاله ليرسم ذلك المعنى الذي أراده الشاعر.

وفي قصيدة طليطلة يقف الشاعر ليبكي أطلال وطنه الذي أصبح نخَّاسًا يبيع بنيه، ويستحل دماءهم، ويضن عليهم بالكفن مما دفعه نحو الشعور بتهاوي الحلم المصري، وإلى الانسحاب إلى خمره المعتصرة من كرمة الآخرين حيث يقول مستخدمًا اللون الأصفر:

قم هاتها... فالحلم شاخ وما وهنْ صفراء... تُذهب عن لياليك الحزن!

(سعد عيسى، ١٩٩٧: ٢٣)

فالصفراء هنا كناية عن الخمر، وقد دبج الشاعر بين اللون وتداعياته وظلال الأسود، فالحلم الذي شاخ، من تداعيات اللون الأصفر كناية عن اليأس الذي ملأ قلبه، والليالي تشير إلى اللون الأسود الذي يغلف الآمال، والأحلام فلا تكاد تظهر.

و) اللون الأزرق

يعتبر اللون الأزرق لون الوقار والسكينة والهدوء والصداقة والحكمة والتفكير، واللون الذي يشجع على التخيل الهادئ والتأمل الباطني ويخفف من حدة ثورة الغضب ويخفف من ضغط الدم ويهدئ التنفس. كره العرب اللون الأزرق، والعيون الزرقاء فاتهموا أصحابها بالكذب واللؤم والشر. (الحطاب، ٢٠٠٣: ٨٥) وكان اللون الأزرق في العيون علامة فارقة للأعجمي الرومي وكل أعجمي حتى قيل عن شديد العداوة «إنه عدو أزرق» (الأندلسي، ١٩٩٥: ج٣/٥٦). ويقال في العدو: هو أزرق العين، وإن لم تكن زرقاء. فقد عرف العرب اللون الأزرق في عيون الجواري والقيان منذ عهد الجاهلية عن طريق قوافل التجار التي كانت تحمل الرقيق من بلاد مختلفة. كما عرف العرب القدامى اللون الأزرق في عيون الغزاة الروم؛ ولذلك لم تأت أوصافها في شعر التراث إلا نادراً. للأزرق دلالات واسعة ومختلفة، وربما يعود ذلك لأسباب منها تفاوت درجاته من الفاتح إلى القاتم، فالقاتم منه يقترب من اللون الأسود؛ لذا فهو يثير النفور والحقد والكراهية، وقد ارتبط بالغول والجن والقوي السلبية في الأرض، بينما يرتبط الأزرق الفاتح بالماء والسماء، فهو مناسب للهدوء والبرودة، وبقيت تدرجات هذا اللون بين هذين الحدين. (حمدان، ٢٠٠٨: ٥١) وللون الأزرق مكانة خاصة في العبرية وأهلها، فهو لون الرب يهوه، بهذا أصبح هذا اللون مقدساً عند اليهود، وأما لدى الصينيين فاللون الأزرق رمز للموت. (عمر، ١٩٩٧: ١٦٤) مع أن تدرجات الألوان تعطي دلالات خاصة، فالأزرق القاتم يدل على الخمول والكسل والهدوء والراحة، كذلك في التراث فهو مرتبط بالطاعة والولاء والتأمل والتفكير، وأما الفاتح فهو يعكس الثقة والبراءة والشباب، ويوحي بالبحر الهادئ والمزاج المعتدل. ولأعشي أبيات في وصف النبيط بالزرق يدّل على إطلاق العرب لون الزرقة علي الأعاجم حيث يقول:

ويُروي النبيطُ الزرقُ من حجراتِهِ ... ديراً تُروّي بالأتيِّ المعمّد

(الأعشى، لاتا: ١٩٣)

وقال في قصيدة أخرى يصف ساقي الخمر بأنه أزيرق دلالة علي أنه أعجمي:

تنخَّلَها من بِكارِ القِطاف ... أزيرقُ آمنٌ إكسادِها

(الأعشى، لاتا: ٦٩)

وسبب ذلك يرجع إلى أنهم يصفون عيون الأغرباء بالزرقة. كما أننا نجد في الشعر الجاهلي بأن هذا اللون تارة يوحي بالعنف والقسوة في مجال الصراع حيث النصال والأسنة

بزرقتها المخيفة، وتارة أخرى يوحي بالطمأنينة والسكينة في وصف المياه الصافية الساجية. كما يقول زهير بن أبي سلمى:

فلمّـــا وردن المـــاءَ زُرقـــاً جمامـــه وضـــعن عصـــيّ الحاضـــر المتخـــيم

(الزوزني، ٢٠٠٥: ٧٦)

وماء أزرق ماء صاف، والزرق المياه الصافية، وإطلاق الزرقة علي الماء لما هو معروف من انعكاس الألوان علي المياه إذا كانت محاطة بالأشجار أو كانت السماء صافية أو ملبدة بالغيوم، كل ذلك يعكس لونه على الماء فيبدو كأنه ميال إلى الزرقة لشدة تكاثفه. (الصفار، ٢٠١٠: ٣٤٢)

لا يعد اللون الأزرق من الألوان الشائعة الورود في الشعر العربي المعاصر خاصة عند فوزي عيسى، فهو يحتل المرتبة السادسة في قائمة الألوان المستخدمة في شعره، ويكاد يحصر الشاعر اللون الأزرق في إطار الماديات. ومن مفردات اللون الأزرق في شعره: تجليات النورس الأزرق ـ كل هذا الفضاء يفضي إلى الزرقة ـ حين احتضنت بزرقة عينيك وامنح البحر لونه. وفي قصيدة النورس الأزرق تبدو لنا صورة الثغر والبحر، وعلاقة العشق القوية بينهما، وهنا ندرك مدى ارتباط الشاعر بالبحر.. هذا الارتباط القوي الذي جعل الشاعر لا يفارق البحر لحظة واحدة، كما نلاحظ غلبة اللون الأزرق على القصيدة؛ فهو لون ماء البحر، ولون الفضاء الذي يفضي كل شيء فيه إلى الزرقة فتراه يقول:

كل هذا الفضاء يفضي إلى الزرقة/ كل لون يسابق الريح (سعد عيسى، ١٩٩٧: ٧١)

يقول في موضع آخر في ديوان "لدي أقوال أخرى":

سَأُعْطِيكِ وَشْوَشَة الريحِ في الصيف/ همسَ النّسيم المسافر/ عطرَ الربيع المُطرز بالنّوْر/ بحرا من اللازورد/ بلون عيوني (سعد عيسى، ١٩٨٩: ٤٥)

نعم هو مَن سيمنحها نسمات الصيف الباردة التي تمنح الروح الإنعاش وتدفع حر الهجير، وهنا الشاعر يُظهر ثقة في النفس كبيرة فهو يعرف مدى قدرته على منح الحب. وهل هناك أحلى من ينبوع الحب، وأكرِم به من عطاء. والصورة هنا سمعية ـ وشوشة ـ ولا يكتفي بهذا فيقول: "همس النسيم المسافر" وشاعرنا هو مَن يملك منح همس النسمات المسافرات للمحبوبة فتحسها راحة خالدة، وكلمة المسافر هنا توحي بالاستمرارية في العطاء مما جعل الشاعر يُوفق في انتقاء هذا اللفظ، ومما زاد من جماليات هذا البيت هو تكرار جرس السين المهموس الرقيق الذي ينساب في الفم انسيابا رقيقا وكأنه الهمس الذي يتحدث

عنه الشاعر مما جعل هذا البيت يبدو متماسكا معنى ولفظا وموسيقية، ليؤكد لنا عن جدارة شاعرنا في فنه الشعري وقدرته الشاعرية العميقة، ليتأصل في نفوسنا موهبته الدفينة وإبداعه الفني ولا يكون الشعر فنا إلا لفئة مخصوصة كفوزي عيسى. والصورة هنا حسية ـ لأن الإنسان يشعر بالنسيم على بشرته ـ ويستمر أديبنا في بسط ثوب نواله لمحبوبته الأثيرة عنده: "عطر الربيع المطرز بالنور" هل هناك أجمل شذى من عطور الربيع التي تفوح بكل ألوان الحياة والتي تتدفق أريجا في الأرجاء لتمنحَ الإحساس بالمتعة واللذة الحسية- حاسة الشم- ولكن شاعرنا أضاف لهذه الصورة صورة مرئية حين مزج بين الشم والبصر بإضافته للنور تطريزا لأريج الزهور، فجعل الصورة أكثر جمالية وأعمق تأثيراً وأبهى متعة وهل هناك أجمل من النور المتلون بألوان الربيع المُبهجة للروح ! وكلمة المطرز توحي بجمال الربيع وزهوره وبديع ألوانه فكأنها ثياب لشخص طُرزتْ بأبهى الألوان لتكون أحلى حُلة. ومَن غيرُ الربيع يملك تلك السمات وهذا القدْر من الألوان ليكّون خيوط مُختلفة بعدد الألوان التي يمتلكها ليُظهر لنا حُلّة متلونة بديعة تسمو بالضياء. حيث ينبثق من شذى زهوره النور ليُشكل لوحة ولا أجمل. هو عطر نوراني ـ بحرا من اللازورد/ بلون عيوني ـ هو لن يبخل عليها وكيف وهي محبوبته التي ملكت قلبه فيعِدها أن يمنحها بحرا من اللازورد، وهو حجر كريم مُشع له بريق زاهي أخّاذ يخطف الأبصار، ليمنح الجمال والبهاء. والشاعر هنا يعرضُ وسامته لمحبوبته ـ وما الذي يمنع وهو الساعي لها لينال حنوها وحبها ـ فلون عينيه بلون اللازورد البحري فكأن البحر منحه لون عينيه وأرى أن هذه الصورة اللونية ـ البصرية ـ تدل على تعلق الشاعر بالبحر فهو ابن الإسكندرية الذي يتعلق بأهداب بحرها ويفتتِن بأمواجها الهادرة. ولون زرقة عينيه الساطعة كاللازورد مُستمد من الإسكندرية. وهنا تظهر أصالة الشاعر المُعاصر لبيئته الذي يتنفس أجواءها، ويُعبر عن سماتها .كما أن هذه الأحجار الكريمة تعني مدى غِنى وعمق نظرة الشاعر اللتين رأى بهما محبوبته واختارها بهما ـ كعمق البحر الذي ربطه بهما ـ فالنظر أيضا هو نور البصيرة وكنز ثمين للإنسان.

النتائج

بما أن فعل القراءة فعل إيقاعي في الأساس نظراً لما ينطوي عليه من انتظام وتسلسل وتركيز وربط مقدمات تقود الى نتائج وبداية ونهاية، فإن قراءتنا لدلالة الألوان عند فوزي عيسى قد أدت الى ما يأتي:

- إن اللون عند الشاعر لم يأت كلاحقة عزلاء على النص، بل جاء عاملاً مساعداً على توسيع أفق المتلقي.
- استخدم اللون أداة للتشفير وتوصيل ما ورائية المعنى . فهو استخدام مجازي، فجعل البياض رمزاً للإشراق والطهروالصفاء...، ورمز بالسواد إلى الحق والكراهية، وبالحمرة إلى الموت والمشقة والقتال، وأحياناً إلى الحسن والجمال، وبالصفرة إلى المرض والضعف وأحياناً إلى الجمال والبهاء.
- أشارت الدراسة إلى دور الصور اللونية في إثراء التجربة الشعرية بالدلالات النفسية والمجازية، والخروج بها من الإطار المحدود إلى اللامحدود، كما أسهمت في الكشف عن جوانب من تجربة الشاعر ورؤيته لعالمه.
- أظهرت المساحة اللونية الأسود الخط الأول لإنتاج الدلالة في الصياغة الشعرية فهذا يدل على غربة الشاعر ويأسه وحزنه في البلد الذي يعيش فيه.
- امتازت الألوان في فلسفة الجمال بعلاقات جمالية متباينة، منها علاقة الانسجام بين المتضادات، الانسجام بين البياض والسواد، والبياض والحمرة، والحمرة والخضرة، وهنا كعلاقة انسجام بين المتشابهات، كالانسجام بين الحمرة والبنفسجي.
- اللون بذاته وظلاله أو تداعياته تكفي لإشاعة لون من البهجة، وتنبيه ذهن المتلقي لدلالاته التي تختلف من شاعر إلى آخر بل من قصيدة إلى أخرى مما يثري العمل الأدبي، وبعث الحياة في البلاغة العربية.
- فحينما ندقق في استخدام هذه الألوان في الشعر نجد بأن هذه الألوان قد تكررت لدي الشاعر ومرد ذلك إلى البيئة المحدودة التي تتكرر فيها المشاهد وتتشابه فيها الصور وهذه الصور وإن كانت متشابهة في إطارها العام لكن لكل صورة معالجة معينة وتفصيلات خاصة بها.

المصادر والمراجع

١. إبراهيم، عبد الحميد (١٩٨٩م). *قاموس الألوان عند العرب*. القاهرة: الهيئة العامة للكتاب.

٢. الأعشى، ميمون بن قيس (لا تا). *ديوان الأعشى*. شرح وتعليق: محمد حسين، الجماميز: مكتبة الآداب.

٣. الأندلسي، ابن عبد ربه (١٩٩٥م). *العقد الفريد*. ج٣، بيروت: دار الفكر.

٤. جمشيدي، ليلا؛ وزارع جفري، زهرا (١٤٣٧هـ). «الألوان ودلالاتها في خمريات أبي نؤاس». *مجلة اللغة العربية وآدابها*، السنة١٢، العدد٣، صص٤٤٧-٤٧٤.

٥. الحطاب، محمد جميل (٢٠٠٣م): *العيون في الشعر العربي*. دمشق: مؤسسة علاء الدين للطباعة والتوزيع.

٦. حمدان، أحمد عبدالله محمد (٢٠٠٨م). *دلالات الألوان في شعر نزار قباني*. بإشراف: يحيى جبر، رسالة جامعية للحصول على درجة الماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس.

٧. الدارمي، عبدالله بن عبدالرحمن (٢٠١٣م). *المسند الجامع*. بيروت: دار البشائر الاسلامية.

٨. الزوزني، حسين بن أحمد (٢٠٠٥م). *شرح المعلقات السبع*. دار العالمية.

٩. سعد عيسى، فوزي (١٩٨٦م). الديوان الأول: *احبك رغم أحزاني*.

١٠. ـــــــــــــ (١٩٨٩م). الديوان الثاني: *لدي أقوال أخرى*.

١١. ـــــــــــــ (١٩٩٧م). الديوان الثالث: *ثقوب في ذاكرة النهر*.

١٢. ـــــــــــــ (٢٠٠١م). الديوان الرابع: *لغة بلون الماء*.

١٣. ـــــــــــــ (٢٠٠٩م). الديوان الخامس: *آخر القابضين على الجمر*.

١٤. ـــــــــــــ (٢٠١٠م). *الأعمال الشعرية الكاملة*. الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

١٥. سلامة، محمد السيد (٢٠٠٢م). *شعر فاروق شوشة بين الرؤيا والإبداع*. القاهرة: الهيئة العامة للكتاب.

١٦. الصفار، ابتسام مرهون (٢٠١٠م). *جمالية التشكيل اللوني في القرآن الكريم*. إربد: عالم الكتب الحديث.

١٧. عبد المطلب، محمد (١٩٩٦م). *قراءة ثانية في شعر امرئ القيس*. بيروت: مكتبة لبنان ناشرون.

١٨. عمر، أحمد مختار (١٩٩٧م). *اللغة واللون*. ط ٢، القاهرة: عالم الكتب.

١٩. كرم، أنطوان غطّاس (١٩٤٩م). *الرمزيّة والأدب العربي الحديث*. بيروت: دار الكشّاف.

٢٠. محمد على، إبراهيم (٢٠٠١م). *اللون في الشعر العربي قبل الإسلام "قراءة ميثولوجية"*. القاهرة: جروس برس ناشرون.

٢١. معجم البابطين: http://www.almoajam.org.

٢٢. مكي، علي (١٤١٣هـ). *حوار الشاعر في: جريدة عكاظ*. السعودية، ص ١٨، قسم ثقافة العصر، العدد ٩٤٧٧، الخميس ١٩٩٢/٧/٩.

٢٣. نوفل، يوسف حسن (لا تا). *الصورة الشعرية والرمز اللوني*. القاهرة: دار المعارف.

٢٤. هالوص، محمد (٢٠٠٠ أ). *حوار الشاعر في: جريدة اللواء العربي*. قسم واحة الأدب، ص ١٠، العدد ٢٠٨، الأربعاء ٢٠٠٠/١٢/١٣م.

٢٥. ـــــــــــ (٢٠٠٠ ب). *حوار الشاعر في: جريدة ملتقى الأدباء*. البحيرة، ص ١٠، الأحد ٢٠٠٠/٣/٥م.

٢٦. يوسف همام، محمد (١٩٣٠م). *اللون*. القاهرة: مطبعة الاعتماد.